قصة قصيرة

مدّ البحر

حنون مجيد

كلّ ما نعرفه أننا نشأنا عليه، كيف؟ لا ندري.. هكذا وجدنا أنفسنا نتخبّط في أرضه المديدة الرخوة بمرح ولهو غافل، والبحر يلوح من البعيد البعيد كما يلوح السراب.

لم نسأل أنفسنا عن أي شيء، كل ما كنا نفعله هو أننا كنا نعيش في أرجائه هائمين، لا ننشد سوى استمرار الحياة عليه.

لم نكن عاطلين يلوذون بدفء الشمس في الشتاء، ويتفيأون الشجر في الصيف كما يفعل العاطلون والمرضى من أبناء القرى والأرياف، كلا.. كنا نعمل وندبّ على الحياة، ونختلف فيما بيننا، ويعلو صياحنا، ولكن هذا وهو يحدث فإنّما يحدث على ساحل رخو طريّ منح أعصابنا طراوته، فكان عملنا لا يتعدّى بضع ساعات، وخلافنا ينتهي بعد ساعة، وصياحنا يهفت بعد دقائق، فتعود حياتنا إلى حالتها التي وجدنا عليها أول الأمر. إنه الساحل المديد، الشاسع، الداكن واللامع معاً الطريّ والناعم الذي لا ترى من حدوده إلا خيط سراب أو خيط وهم. الساحل، هو العالم الذي لا رديف له. لا بحر يقترن به أو يبدأ منه، العالم الذي لا رديف له، إن حام الذهن حول الرديف، إلا الخيال. البحر، أكذوبة كبرى.. وهم.. خدعة.. البحر، كذب وبهتان.. الساحل، الأرض الموعودة التي ندوسها بأقدامنا ونزرع فيها أصابعنا ونرشّها بحدقاتنا، هو ذا يمتد ملء البصر والخيال، يحمل أجسادنا الثقيلة، وكلما ضغطنا عليه لان وارتخى مثل كلب أليف.. هو ذا مليء بآثارنا.. أقدامنا تزحف عليه دون كلل ليل نهار، وأيدينا تعبث برمله تبني منه قصوراً وبيوتاً كبيرة بأبواب عريضة متعددة لا يحرسها الحراس، ولا يسير في طرقاتها الجنود؛ ممالك لنا يدفأ فيها العقل والخيال ويسرح بينها الواقع والحلم، وإذ نمتلىء بها ونشبع منها نحطمها دون مرارة أو أسف لأننا نشيدها كل آن، نعود نبنيها بهوس الأطفال وعزيمة الرجال ودقّة النساء، نكوّنها كبيرة أكثر وأوسع وأبهى؛ نركّبها طوابق، طابقاً فوق طابق، شرفاتها شرقية يلعب فيها الهواء الطلق وتغرد بين أبهائها الطيور. هل كنا نحلم؟ ذلك ما لم نكن ندركه أو نحسّ به.. كان الحلم يسير معنا ويسبق خطواتنا.. نراه بيننا يغمرنا مثل الضباب، دخل فينا ودخلنا فيه فلم تكن ثمة فاصلة بيننا وبينه لكي نحسّه ونعرفه، كان جزءاً كبيراً من حياتنا مثلما يكون عليه الماء والهواء للأحياء، هكذا كان الحلم فينا.. كنا حالمين وإذ كنا... فإننا لم ندر، لم نعرف ما الحلم، ما الوهم، ما الزمن، ما الذي يغمر الساحل غير فعلنا وضجيج أصواتنا، وقصورنا المترفة بشرفاتها المفتوحة كصدور الأبطال، غير أننا هكذا ولن نكون غير ذلك، غير أننا نقطع دربنا بسعادة العشّاق...

أيّ ساحل هو ذا الذي كلما زحفنا عليه امتدّ وعظم؟ أهو نفسه الكذبة الكبرى ولا شيء سواها؟ أهو الوهم الزائف وبروق السراب؟ كلا. كان ساحلاً مديداً، شاسعاً، غير أنه، وبصورة لم نفقه سرّها، غاب.. فجأة اختفى كما تختفي الأحلام. ربما كان حلماً ولكنه على أية حال ليس وهماً أو محض سراب. كان حلماً حقيقياً لذيذاً له صلابة الواقع وحلاوة الحياة.. كان حياة لذيذة يكتنفها الحلم، يرفعها طبقات، طبقات حتى باتت أشبه بسحابة تهوم في الفضاء.

«ذلكم هو البحر» هكذا انبثق فجأة من قلب الساحل وعبر أجسادنا الهائمة عليه صوّت أحدنا: «انظروا إليه.. إنه يزحف نحونا» ورفعنا رؤوسنا لنرى ألسنة الموج تتلاعب بيضاء في الأفق كما تتلاعب ألسنة النار في الهشيم، ونسمع

دويها وهي تسعى نحوها وتدنو منا. . عقدت الدهشة ألسنتنا، عمّتنا فوضى لا مثيل لها، هرعنا نحو كل صوب، وكان البحر يكبر، والموج يمور، والساحل يضيق حتى غدا شريطاً ضيّقاً تهاوت فوقه بيوتنا، انهارت أعمدتها وتراكمت فوقها الغرف والشرفات، كنّا نراها تتساقط أمام أعيننا بسرعة الأحلام وتتهافت فتدوسها الأقدام وتجرفها المياه. . طارت طيورها وحلّقت فزعة مدوّمة في السماء. . لا عاصم من البحر. . أين المفرّ؟

لحظات وغطّى البحر كل شيء. . إنه المدّ. . المدّ الهائل الغريب، رفعنا على ألسنته وقذف بنا على السطح الهائج أو دفننا تحت الأعماق المدوّية المظلمة، هل كان ذلك حلماً آخر مدّ سلطانه على أعيننا ووجداننا؟ كلا. . كل شيء حلم إلاّ هذا، فأمواج المدّ صخبت وهدرت حتى صمّت الآذان، ومرارة الماء العلقمية اغتصبت بلاعمنا فملأتها حنظلاً وملحاً. . غرق منا من غرق، وطفا منا من طفا. . هدرنا جميعاً بأصوات غير مفهومة. . لقد استباحنا المدّ وقطع علينا الاتصال بعالم آخر غيره. . لا عالم إلا البحر والسماء؛ عالمان أزرقان مخيفان عميقان بعيدان لا قرار لهما. . صارت الأمواج ترفعنا على أكتافها مثلما ترفع قطع الخشب، ثم تغور بنا نحو الأسفل، ثم ما تلبث أن تنبثق بنا مثل مردة في هيجان. . البحر في غليان. . المدّ، لسان أفعى أسطورية يمتدّ طويلاً، يلتف، يلتهم كل شيء ويقذف به نحو الأعماق المدوّمة بجنون: «إنّه المدّ. . أتعرفون»؟ هكذا رفع صوته أكبرنا وهو يعلو ويهبط على ظهر حصان بحري هائج بلون القطن، يجري به بعيداً عنا. . أجابه آخر بصوت فيه غضب راعد:

ـ كنت تعرفه إذن، ولعلك كنت تراه وهو يسعى نحونا أيضاً.

ـ ما كنت أعرفه، وما كنت أعرفه هكذا. كنت أسمع به من بعيد. . الآن عرفته، لا شيء يشبهه. . أنت ترى.

وهاج به حصانه البحري الأبيض، رفعه عالياً ثم طوح به في القرار. غاب لحظات حتى ارتفع ثانية على عنق حصان آخر يتلوّى كالأفعى وقد لامس جسدها سعير النار.

في وطيس حركة المدّ الهائلة كنا نظهر ونغيب ثم نعود ثانية نستوي على خيول راقصة على نشيد كونيّ متلاحم يطبق الآفاق، وكانت أصوات الاستغاثة والاستنجاد تحلّق في فضاء مجنون، ثم تكلّ عن التحليق فتسقط في معترك البحر دون صوت أو صدى؛ أصواتنا لا تبتعد عنا، لا تسمعها إلا آذاننا المحشوة بالماء الأزرق، ولم نعد نملك شيئاً سوى الخوف والرعب والهلع، تناوبتنا خيول البحر خبباً ثم صهلت وحمحمت وهدرت ثم غارت بنا مثل ريح . . .

البحر؟ مدّه الغريب العاتي، السيل الذي رفعنا من أقدامنا ثم طوانا ووضع رؤوسنا مقام أقدامنا، وجعل يكوّر بنا ويقلبنا تارةً نحو جهة ما وأخرى نحو جهة ما.

والريح؟ لا بحر دون ريح؛ هبطت علينا من مجهول، دوّمت فوق رؤوسنا وملأت آذاننا بصرير صاخب، آناً تغادرنا وآناً تعود علينا بفرٍّ وكرّ متعاقبين. . لا أعند من الريح. . كان الوقت شتاءً والريح في عزّ نشاطها وفتوّتها، والريح في الشتاء ذات دم بارد تلسع الأجساد، والسماء حبلى ملّت الانتظار. لحظة وبدأت تنثّ ثم ساعة وبدأت تهطل والبساط من تحتنا ينتفض مثل قلب هائل موتور:

ـ تأمّلوا!

فجأنا صوت من قلب البحر يمتطي صاحبه جواداً جامحاً غير أنه كان، كأيّ فارس محنّك، يعتليه بثقة؛ كلما ارتفع طار معه وكلما هبط غاص وإياه. . نظرنا فلم نشاهد سوى خيول البحر في تسابقها وتلاطمها وتموّجها المخيف، وقطعان السماء وهي تصطخب وتضطرم في الأعالي، وشلاّلات المطر وهي تسوط البحر وتحفر فيه الأخاديد.

ـ هل ثمة وقت للتأمل، وكيف؟

خاطبه أحدنا وهو يرتجف وقد بليت ملابسه ونُزعت عنه، وأردف وهو ينظر هنا وهناك لعلّ في الأفق بعض الأمل:

ـ نحن لا نرى شيئاً سوى الموت المحدق بنا من كل جهة، هل أنت مجنون؟

قال الأول وهو ما يزال يعتلي بثبات صهوة جواد دُقّت بحوافره المسامير:

ــ تأملوا كيف تلتحم السماء بالبحر وما زلنا أحياء.. أحياء كما ولدتنا أمهاتنا.

ــ نحن نموت.. عروقنا أثلجها البرد، رؤانا لا تتعدى أنوفنا.. انظر إلى ذلك كيف يختلج مثل سمكة طعينة.

ــ ومع هذا فإنه ما يزال يقاوم الموت.. حدّق فيه جيداً كيف يبتعد عن التيارات المهلكة ويقود نفسه بنفسه.. كلّنا يختلج.. أنت ترى ما نحن فيه.

ــ إنّي أراه.. بل إني أرى كيف صنعناه بأيدينا.

كان الثاني يقول كلامه بصوت متقطّع يجهد أن يكون أعلى من الرعد والهدير الذي يملأ الآفاق، وعاد الأول يقول، وهو يتناءى عنه، وبصوت لا يكاد يخترق قطعان خيول الماء:

ــ لا تفكر في ما مضى.. دعنا نصل الشاطىء ثم نعود من جديد. لكل جماعة كارثتها.. وهذه هي كارثتنا.. إعلم ذلك جيداً.. إحفظه ولا تنسه فسوف نعود.

ــ الساحل؟ كلا.. رماله أطرى مما يجب، وسعته هائلة لا تتيح لنا رؤية ما يحيط بنا.

وقبل أن يردف بشيء آخر انطوى تحت سنابك جواده ثم ما لبث أن عاد واعتلاه مجدداً وهو يصرّ على الكلام:

ــ كنا لا نرى سواه.. وكنا نتصوّره عالمنا الذي ليس بعده من عالم آخر.. حتى البحر لم نكن نرى منه إلا خيطاً متوهجاً كنا نحسبه خيط سراب.

ــ الذنب ذنبنا، والحياة فصول.. ألم أقل لك إن هذا هو فصلنا المجلّل بالسواد؟

وتناءيا كما تناءى الكثيرون في عرض البحر، تناثروا كل في طريق ومسلك بعيداً عن صحبه وأقرانه، أصبحوا نقطاً سوداء في صفحة هائجة هائلة الاتساع، تلفّهم دوامات وتسحقهم دوامات؛ عدد كبير يرتفع على تلال من الماء بحجم الحيتان، بقدر العدد الذي ينغمر في وديان مائية سرعان ما تلتفّ على نفسها وتتلولب ثم سرعان ما تقذف ألسنتها وتطوح بالعشرات.

ولم يتوقّف مطر السماء وكأنه يحاكي البحر في رعونة لا تعبأ بالصياح والصراخ ودعوات الاستغاثة البائسة.. باتت الأصوات مكتومة لا يسمع منها إلا ما تجود به الريح إن لم تأخذه بعيداً وتنثره في الآفاق..

حجبت ألسنة الموج، خيول البحر، تلال الماء رؤيتنا، وسدّ هديرها منافذ أسماعنا، ساطتنا الرياح وملأت آذاننا بوعيد لم نسمع بمثله من قبل، وصفعنا المطر بأيدٍ ثقيلة أبرد من ماء البحر.. لا بحر، لا سماء، لا شيء.. البحر سماء، والسماء بحر، والشيء لا شيء.. كل شيء أغبش، متناثر، هائج، مائج، غاضب، سريع وقاس..

المدّ.. الساحل.. البحر.. آه لو كنا نعلم ما المدّ، لو كنا نعلم ما البحر، لو كنا نفهم القمر؟. هل كان قمرنا غادراً بهذا الشكل؟ وديعاً نراه، أبيض كاللجيْن، وحين يرحل يعمّ الظلام فنحزن عليه.. آه لو كنا نعلم ما القمر.. لا بد أنه كان ثمة مد، ولكنه كان بعيداً عنا، لم يستطع التقرّب منّا فنراه أو نسمعه، ربما كان هنالك مدّ لم تشاركه الريح فيجرف كل شيء، ولم يرافقه مطر.. هل كان المد يحدث بعيداً مرة ومرات دون أن نعرف أو نسمع أو نكاد؟ يا حلمنا البائس البارد كهذا الماء.

واعتلى ظهر البحر صوت يذكّر بحكمة جرفتها الريح ونحن سكارى بالأحلام، لكن الليل وهو يهبط حتى قرار البحر يكتسح الصوت ثم يخنقه فلا شيء سوى هدير مشوش لخيول تتزاحم مدمدة مهزومة، وفرسان يتساقطون ورايات تنكس وتطوى ونساء يعولن ورجال يبكون ويغرقون، وأطفال غرقى بكل ما يحدث، من غرق منهم نجا، ومن ظل حياً يموت بالغرق البطيء، وطيور حامت كثيراً وهامت ثم كلّت وزعقت وأخيراً سقطت فابتلعتها الأمواج.. ساعات وساعات بقدر الدهور ونحن غرقى، ليس فينا أيّ حي، لقد انتكست حياتنا وغارت حتى اندثرت في ليل البحر الداكن بعيداً عن أية لحظة نور..

هل كان مداً غريباً عجيباً ليس له مثيل؟ لم نكن نعرف ذلك. كلّ الذي عرفناه أنه طغى طغياناً بحيث أنه اكتسح كل قائم على الساحل، طواه وعاد به على ظهر خيول مرعبة نحو بحر أهوج ملتاث العقل مكتظ الجنبات.. ساعات وساعات حتى انقشع الليل وظهرت تباشير الصباح، وبدأ الموج ينحسر والساحل يبين فضّياً لامعاً مشوباً بسمرة خفيفة، وتعلّقت به عيون من بقي حياً يلتقط أنفاسه رغم بعده واستحالة الوصول إليه. لقد حملنا الموج المنحسر حتى أقاصي البحر مثل كرات عائمة تعبث بها الريح والموج.. علينا أن نمتلك أنفسنا.. أن نغادر البحر، أن نناضل موجه وريحه وتعب أجسادنا وهلاك بعضنا ونعود..

وابتدأنا المسيرة.. لم يعلن أحد منا المسيرة، بل هبت الجموع، ليس أحد يعرف كيف ومن كان يتقدم أو يتأخر.. كانت العودة تكمن في النفوس، تحملها مع كل صدمة موج ولفحة ريح وانبثاق صرخة مقاومة وانطفاء حياة..

هتفنا: «بخطوة واحدة...» وتنادينا: «هيا إلى الساحل من جديد». وبدا الساحل أكثر إشراقاً؟ ضربت عليه الشمس التي نهضت من غفوتها تواً فانزاحت غشاوة الغبش التي كانت تلفه وتتدثر فيه.. لقد بدا خيطاً لامعاً ونحن نضرب الموج ونتهادى نحوه وننظر إليه.. ورغم فراره منا وابتعاده عنا فإننا كنا نزداد إصراراً عنيداً بالوصول إليه.. لم نكن بدرجة واحدة من الإصرار، فقد سقط في رحلة العودة من سقط، واستشهد من استشهد، ولم يبقَ إلا الذين لم تنطفىء في أعماقهم النار ولم يخبُ في نفوسهم سعير الأمل.

خبطنا البحر، واخترقنا سداد الموج والريح وخضنا في الوثل عراة، مزّق البحر والريح ملابسنا، وقرّح الملح أجسادنا.. كنا حفاة، عراة ملوثين لم ننجُ من ملح وجرح وصديد، كنا حفاة، عراة منسلّين من قلب البحر، من مدّه العاتي، من الملح والموج والريح والمطر..

واقترب الساحل.. خطوات ونرتمي في أحضانه كما لم نرتمِ من قبل.. سوف نسترد أنفاسنا حتى ننعم بنوم لذيذ وهدوء تام، نقوم نبني بيوتاً أمتن مما كانت وأعلى وأرسخ في الأرض نراقب ونبني أنفسنا من جديد، نعمل كل لحظة ممكنة ونراقب المد، وحتى يعود مجدداً نكون قد قوينا عليه.. لحظات وننعم بما كنا ننعم به من قبل، بل وأفضل بكثير.. لحظات حتى بدا البريق وتلك اللمعة الناصعة يكشفان عن حراب مشرعة وخوذ من حديد وجنود مصطفّين.. ما هذا؟ أين الحلم؟ ما كنا فيه أم ما يلوح ويشخص مثل سور الصين؟ وما كدنا نضع أقدامنا على الساحل الذي ما يزال ينزّ بماء المد حتى توجّهت الحراب نحو صدورنا العارية على صوت قائد عسكري كبير يقول بلهجة آمرة خشنة:

ـ إلى أين؟

وقلنا بصوت واحد:

ـ إلى الساحل.. أرضنا، وحياتنا عليه.

قال بنفاد صبر:

ـ عودوا من حيث أتيتم.. ارجعوا.. عودوا قبل أن نمزّق صدوركم.

ولم نفقه من أمره شيئاً.. لماذا يمنعنا؟ وإلى أين نعود؟ البحر من ورائنا وهو يعني الهلاك فكيف نعود؟

قال أكبرنا بصوت تخلله غضب دفين:

ـ أين نذهب؟ الساحل وطننا.. نشأنا عليه، وهل يستطيع الإنسان أن يعيش في البحر؟

ـ لا شأن لنا بكم.

ـ إننا لا نريد العودة ولا نستطيع.. دعونا نمر.. الساحل وطننا ومسرح عيشنا وسعادتنا.

ـ لن تمروا.

ـ بل سوف نمر ولن تستطيع حرابكم أن تمنعنا.. لقد تشبعت أجسادنا بخشونة لم تعرفها من قبل.. أفسحوا لنا الطريق.

وتحرّكت الحراب والخوذ وأعقاب الحديد.. كل شيء يحدث بصمت، فلا حاجة لسحب مخازن العتاد وإطلاق النار.. حفاة عراة مكشوفو الصدور، منهوكو الأطراف، الحراب وحدها كافية لتمزيقهم وتشتيت صفوفهم وردّهم

إلى البحر.. وحدث ما حدث.. امتدت الحراب ومزقت بعض الصدور المشرعة من قبل للملح والريح وخيول البحر.. وهتف هاتف مجهول بصمت عميق متواصل كما لو أنه يصدر بلحظة واحدة من أعماق الأرض والسماء، فيه رائحة مزيج الماء والتراب وعروق الأشجار، وله دوي الرعد وأزيز المطر: «العدو أمامكم والبحر من ورائكم فعلام الانتظار»؟

واندفعنا مثل سيل.. تلاحمنا مع الجنود والحراب وخوذ الحديد.. وسالت دماء وانهارت عزائم وسقطت حراب سرعان ما تناولتها أيدينا وشرعت تفلّ بها الحصار.

كان القتال ضارياً ملتحماً ما إن يسقط الجسد حتى تدوسه الأقدام لتتقدم عليه، وبدأ الساحل يلوح من خلال ثغرة أو ثغرتين، وبدأت صفوف العدو تتراجع وتدور على نفسها، وكان القائد العسكري يعتصم بمجموعة من رجاله ويصيح:

ــ لقد تسلّقوا أجسادكم أيها الأغبياء، فأين هي الحراب؟

وتنبّهنا إليه.. طوقته مجموعة من رجالنا وبحراب جنوده تم القضاء عليه فانهار ذلك الجيش العرمرم، وتسلّقنا الساحل من جديد..

رفعنا جثثنا.. شيدنا لها قبوراً كبيرة تشبه الأضرحة.. كتبنا عليها بدماء الشهداء عبارات الانتصار.. كتبنا على شاهدة أول شهيد: «بهذا بدأنا الحياة»، وكتبنا شاهدة شهيد آخر: «بهذا تسلقنا الساحل من جديد» وعلى شاهدة ثالث: «بهذا نبدأ نتذكر ولا ننسى» وكتبنا وكتبنا.. وبدأنا نعمل من جديد.. لا بحر وهم.. لا مدّ وهم.. لا قمر وهم.. لا ساحل-وهم.. كل من هذه الأشياء يعمل لنفسه يهدم أو يبني، يخدع أو يصدق.. وبدأنا نبني من جديد، أكثر رسوخاً، أعلى وأفضل وأبهى.. وما زلنا نراقب المد.. ولكننا لم نعد نخافه..

المدّ..؟ حزن النفوس والبغي عليها، جور البحر وعنفوانه.. كارثتنا التي لا ننساها أبداً.

بغداد

□ □ □

دار الآداب تقدم

سلسلة بطولات عربية

- **لبيك ايتها المراة**، بقلم سليمان العيسى.
- **الحدث الحمراء**، بقلم سليمان العيسى.
- **ابن الصحراء**، بقلم سليمان العيسى.
- **صلاح الدين الأيوبي**، بقلم فالح فلوح.
- **زنوبيا فارسة الصحراء**، بقلم فالح فلوح.
- **سيف الدولة الحمداني**، بقلم فالح فلوح.
- **معركة الزلاقة**، بقلم فالح فلوح.

دار الآداب ــ شارع البازجي ــ بناية مركز الكتاب ــ ص. ب ٤١٢٣ ــ تلفون ٨٠٣٧٧٨